

الصور المحتملة لشخصية النملة في القرآن الكريم

دراسة في ضوء منهج التحليل اللغوي

المدرس الدكتور

ضمير لفته حسين

جامعة البصرة / كلية الآداب

الملخص

إنَّ هذا البحث المتواضع يطرح أنموذجاً عملياً يبيِّن بعض المعاني المحتملة في النص القرآني. بتحليل كلمات ذلك النص المقدَّس وتراكيبه وفقاً لمعطيات اللغة وسياق النص نفسه سواء السياق الداخلي من قرائن لفظية وأحوال إسنادية من زيادة وحذف، وتقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وإفراد وتثنية وجمع وغير ذلك، أم السياق الخارجي المشتمل على ملابسات الحدث الذي يتكلم عنه النص أو التي أنزل النص عند حضورها. فقد قدِّمتُ هذه الدراسة تحليلاً لمقطع صغير (آية واحدة) من النص القرآني هو الآية (١٨) من سورة النمل التي تضمَّنَتْ خطاب نملة لقومها في محضر النبي سليمان (عليه السلام) وهي تنصِّحهم، أو تأمرهم أن يتوخَّوا الحذر من وقع أقدام جيش سليمان (عليه السلام) ذلك الجيش الجرَّار. وقد اعتمد التحليل على المعطيات اللغوية التي تضمَّنَتْها النص دون التكلُّف في الفرضيات والنظريات. فبانَتْ لنا صوراً محتملة كان النص القرآني قد قدَّمها لتلك (النملة) ، وقد تمَّ عرض الصور المحتملة لشخصية النملة التي حَمَلَهَا نصُّ كلامها، وهي في جملتها - بحسب البحث - ثلاث صور: تُمَثِّل الأولى صورة النملة الحاكمة التي تفرض هيمنتها على المتلقين، فهم جميعاً شعبيها المطيع لها في كلِّ ما تقوله وتأمربه؛ فهي الملكة الحاكمة على مملكة النمل هذه ذكوراً وإناثاً. أمَّا الصورة الثانية فقد مثَّلت صورة النملة الحكيمة التي تنطق بالحكمة في ظروف صعبة تقلُّ فيها الحكمة ويضعف فيها الرأي؛ لما تضمَّنَتْها خطابها من بعد نظر وسعة إطلاع وعمق أفق والاحاطة بمجريات الأحداث من حولها وما ستؤول إليه من نتائج، وجاءت الصورة الثالثة وهي تحمل صورة النملة الأنثى التي لا تخضع في مملكتها إلى سلطان الذكر إذ إن طبيعة الحياة في بيئتها تكون تحت سلطة الأنثى، وتكون وظيفة الذكور فيها الخدمة وحماية المملكة، ثُمَّ نجد هذه الأنثى الملكة

تقف خاضعة أمام حاكم ذكر بَلَّغ من السطوة أن يسحق جنوده بأقدامهم ممالك من المخلوقات الأخرى وهم لا يشعرون.

The Representation of the (Ant) in the Holy Quran

(PhD)

*Instructor: Dhameer Lafta Hussein
College of Arts / University of Basra*

ABSTRACT

This modest research poses a practical model to examine the possible readings of the Quranic text. This can be carried out by the analysis of the words in the sacred text and their grammatical structures according to the data of language as well as the context of the speech itself, whether it is the internal context of verbal evidence or other grammatical structures such as predication of increasing, deletion, preceding, etc. This analysis of the text shows also other linguistic features such as definiteness and articles and other related linguistic features. Regarding the external context, it includes the circumstances of the theme which the text is dealing with. This study introduces an analysis of a small section of the Quranic text from the verse of Surah (The Ants). This Surah includes a discourse addressed to her at the time of the prophet Sulaiman's presence while she was advising her people or ordering them to careful of falling as victims under the feet of Sulaiman's Army, peace be upon him, in which Sulaiman's army was a very great one. The analysis was based on the linguistic data available in the text without details in hypotheses and theories that have been adopted by the researcher. This has provided us with metaphorical expressions the Quranic text which was produced by that simple creature called (ant). According to the research, these words have totally included three images : the first image represents the image of the ant as a leader that impose her authority on the audiences, they are

all people obedient to her in everything she says or orders; she is the Queen that rules over the kingdom of ants, both males and females. The second image represents the ant as a wise ant who speaks the wisdom in the difficult situations in which the wisdom is rare and the opinion is weak. This can be deduced from the tone of her discourse, her farsightedness and her capacity to give information as well as the great knowledge in the course of events encompass which may lead to expected events. Regarding the third image, it represents the image of the female ant, which is not subject in her kingdom to the authority of male as the nature of life in their houses are under power of female, while the role of the male is only to serve and protect the kingdom. On the other hand, we find this female as queen that is obedient and praising the human male ruler who has the control to the kingdoms of other creatures by the feet of his soldiers who do not pay attention to these creatures.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين
وبعد... قد توالى الدراسات حول النص القرآني من أول نزوله إلى يومنا الحاضر، ومع ذلك نجده
يتجدد في كل عصر ليتحف أهله بما تحتاجه متطلبات زمانهم، فلم تنضب خزائنه ولم تنته معاجزه .
وعلى الرغم من تنوع مناهج هذه الدراسات، وتعدد مجالاتها، وكل ذلك بحسب الحقول العلمية
التي تنتمي إليها، والغايات التي ترمي لها، إلا أنها تلتقي جميعاً في مجمع واحد هو البعد اللغوي في
بحثها للنص القرآني إذ لا يمكن لأي دراسة تخصصية أن تتناول النص القرآني دون أن تبدأ بالبحث
اللغوي لأياته، ثم تتجه منها إلى التخصصات الدقيقة التي تُعنى بها، أو الرؤية المعرفية التي تريد
الوصول إليها، وبحث القرآن في مساحتها؛ لذلك نجد أن للبحث اللغوي إسهاماً في جميع الدراسات
القرآنية على الرغم من اختلاف مجالاتها وتنوع مشاربها، بل إن أغلب التقصير. إن وجد. في هذه
الدراسات إنما ينشأ من ضعف البحث اللغوي الذي تتأسس عليه وتقوم على لبناته الأولى، إذ كل
خطأ في التأسيس اللغوي لأي دراسة قرآنية سيقود بلا شك إلى نتائج غير دقيقة في نهاية الأبحاث؛
لذلك ارتأينا في هذا البحث أن نقدم انموذجاً للبحث اللغوي العميق في النص القرآني، متحولين في
طياته بين مجالات عدّة من مجالات المعرفة، منها علم النفس، وعلم الاجتماع والإدارة وعلم البيئة
وغير ذلك ممّا اقتضته الضرورة، وتطلبته مفاصل البحث، إلا أن الغاية الأساس لهذا البحث هي
عرض العبارة القرآنية بما تحتمله من وجوه عدّة قد تحمّلها السياق الداخلي في موضع البحث.
وقد كانت مساحة البحث متمثلةً بقصة النملة مع النبي سليمان (عليه السلام) التي ورد ذكرها في
القرآن الكريم مرة واحدة .

وقد بينا في طيات البحث الصور التي يرسمها القرآن الكريم لهذه النملة بتحليل خطابها مع
جماعة النمل من أبناء جنسها، معتمدين في ذلك على المعطيات اللغوية والمقدمات العلمية والمبادئ
الأساسية للعلوم التخصصية في مجال النفس والاجتماع والبيئة وغير ذلك .

وقد جاء البحث مقسماً على مباحث ثلاثة سبقها مقدمة، ثم تلاها تمهيدٌ ولحقها خاتمة، فثبت
للهوامش وآخر للمصادر. وقد اختص المبحث الأول منها ببيان صورة النملة الحاكمة التي توجه
خطاباً استعلائياً إلى شعبٍ من النمل يسمع كلامها ويطيع أوامرها . واحتوى المبحث الثاني على
عرضٍ للصورة الثانية المحتملة لشخصية هذه النملة هي نملة حكيمة باستعمالها خطاباً وعظياً
إرشادياً مع أبناء جنسها. وأخيراً تناول المبحث الثالث كون هذه النملة أنثى بكل ما تحمله هذه

الأنوثة من خصوصيات في عالم النمل، والتي كان لها الأثر البالغ في تشكيل عباراتها وهي تقف أمام ملك بشري عظيم النبي سليمان (عليه السلام)، ثم انتهى البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي خرج بها البحث .

وختاماً نسال الله القبول فيما نقول، ونفعل. إنه سميع مجيب الدعاء ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

التمهيد : فهم نظرية البطون في القرآن الكريم

إنَّ ممَّا لا شك فيه أنَّ لألفاظ القرآن الكريم سحرَ بيانٍ لا يدانها ثابٍ فيه من نصوص العالم أجمع سواءً ما كان منها بشرياً أم دينياً، قديمها وحديثها، ومن المؤكد أنَّ السَّرَّ في ذلك يعود -بعد حقيقة القرآن العلوِيَّة - إلى سبك حروفه وكلماته وجمله ونصوصه حتَّى يكون ترابطها دونما تعثُرٍ أو تقعرٍ وعُسْرٍ في لحن (صوتٍ) ومعنى ، ولما يمتاز به من دقيق وصفٍ يتكلم عنه، وعظيم أسلوبٍ يخطف القلوب قبل الأبصار، ويترك العقول في حيرةٍ مع بديع الإفهام والإبصار إذ لا يجد المتلقي في النصِّ الشريف كلمةً واحدةً وضِعَّت في غير محلِّها، أو يمكن رفعها، أو وضع أخرى بدلاً منها، فكلِّ كلمة اختيرت بغاية الدقَّة لهذا المكان الذي وضعت فيه، ومن مظاهر عظمة الإعجاز القرآني أنَّك تجد العبارة الواحدة فيه يمكن أن تُفهم من وجوه عدَّة، ربَّما تصل تلك الوجوه إلى العشرات دون أن يختلَّ السياق الذي وردت فيه هذه العبارة، وتكون كلُّ هذه الوجوه مقبولة، وعليها أدلَّة من السياق الخارجي المحيط بالنصِّ، والسياق الداخلي الذي احتواها.

وربَّما يكون مرْدُ هذا إلى ما سمَّته الرواية المتواترة بالبطون أو الوجوه في النصِّ القرآني إذ ورد عن جابر عن الإمام الصادق (ع) أنَّه قال (يا جابر إنَّ للقرآن بطناً وللبطن بطناً وله ظهرٌ وللظهر ظهرٌ يا جابر وليس أبعد من عقول الرجال تفسير القرآن، إنَّ الآية يكون أوَّلها في شيءٍ وآخرها في شيءٍ، وهو كلامٌ متصلٌ متصرفٌ)^(١) وورد عن الإمام علي (عليه السلام) قوله في وصيَّته لابن عبَّاس لما بعثه للاحتجاج على الخوارج: (لا تُخاصمهم بالقرآن فإنَّ القرآن حمَّالٌ أوجه، ذو وجوه، تقول ويقولون ولكن حاججهم بالسنة فإنَّهم لن يجدوا عنها محيصاً)^(٢)

ثمَّ إنَّنا نجد من عظيم إبداع أسلوب القرآن الكريم أنَّه يُورد العبارة أو الكلمة في تراكيبٍ ما فتعطي دلالةً محدَّدة، ونجد نفس تلك العبارة أو المصطلح في سياقٍ آخر أنَّها أخذت دلالاتٍ جديدةٍ ذات أبعادٍ مختلفةٍ عمَّا كانت عليه في الاستعمال الأول أي أنَّ القرآن ينوع في استعمال الكلمة ويمنحه دلالةً إضافيةً (جديدة) عبر وضعه في سياق لغوي مغاير تمنحه انتعاشاً وحيويةً تُبعده عن الاستهلاك

الذي يُسبَّب عن كثرة الاستعمال إذ نجد أنَّ الكلمة القرآنية في انعاشٍ وتألُّقٍ مستمرَّين على الرغم من تكرار استعماله مرَّاتٍ عدَّةٍ في سياقاتٍ مختلفةٍ، ومثال ذلك كثيرٌ منها لفظ الزكاة التي جاءت على معانٍ منوَّعةٍ، منها في قوله تعالى ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ (الليل ١٨)، فالزيادة هنا في الأموال ((فهو مصطلح اقتصادي))^(٣)

ومنها في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ..﴾ (البقرة ٤٣) ، وهو بمعنى الفريضة الشرعية (وهو أمرٌ فقهيٌّ)^(٤)، ومنه قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس ٩)، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (فاطر ١٨) ويعني الطهارة في الأنفس (وهو أخلاقيٌّ)^(٥) ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (النجم ٣٢) وهو مصطلح اجتماعي^(٦) ومثل مصطلح الزكاة كثيرٌ ممَّا ورد في منظومة الاصطلاح القرآنية .

ومن عظيم ما نطق به القرآن الكريم ما نزل منه يصف لنا مخلوقةً صغيرةً في مملكة خلق الله الواسعة، هذه المخلوقة هي النملة التي مرَّ عليها النبي سليمان (عليه السلام) وجنوده في واد النمل، وما يصوره القرآن الكريم لمتلقيه من ملامحٍ لشخصية هذه النملة تاركاً المجال مفتوحاً أمام المتلقي أن يكمل رسم اللوحة في ذهنه عن هذه النملة بما يتلمَّسه من أبعادٍ في شخصيتها.

قال الله العزيز الجليل ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمُوا ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل ١٨-١٩)

ورد لفظ (نملة) في القرآن الكريم مرَّةً واحدة في هذه الآية، وجاءت هذه اللفظة مجموعةً في السورة نفسها في موضعين بصيغة اسم الجنس الجمعي (النمل)^(٧)، وقد رسم القرآن الكريم لنا صوراً عدَّةً لهذه النملة، تحمل كلُّ صورةٍ منها دلالاتٍ منوَّعةٍ تختلف بعضها عن بعض، وهي جميعاً تُقدِّم للمتلقي صوراً منوَّعةً لهذه المخلوقة المُبدَّعة في صنع صانعها، الضعيفة في جسمها، الصغيرة في حجمها، القوية في قناعتها، الكبيرة في سعة أفق تصوُّرها وشمول خطابها، وهذا ما سنتبعه في هذه الدراسة القرآنية، ومحاولة تحليل الأبعاد الشخصية التي يُقدِّمها لنا القرآن الكريم عن هذه المخلوقة بما استعملته من أنماط خطابٍ، وهي في جملتها ثلاثٌ صور هي:

- صورة النملة الأنثى التي تُمارس خطاب العاطفة والإعجاب والحبِّ للآخر .
- صورة النملة الحاكمة أو الملكة التي تُمارس خطاب الاستعلاء تجاه المتلقين .
- صورة النملة الحكيمة التي تُمارس خطاب النصيح والإرشاد والوعظ تجاه الآخر .

وتُستشف هذه الصور كُلُّها من الفهم الدقيق للقرآن الكريم، وتجميع القرائن اللفظية والعقلية والعلمية الممكنة للوصول إلى وجهٍ مقبولٍ ومحتملٍ من تقديم صور النملة إلى المتلقي والوصول إلى الدروس والحكم والعبر والمواعظ الأخلاقية والتربوية التي يرمي لها القرآن الكريم من سرد هذه القصة اللطيفة، وبيان كيف توصل النصُّ المبارك إلى عرض تلك المعاني السامية، معتمدين في هذا البحث على منهج التحليل اللغوي وبيان المستويات اللغوية (النحو والصرف والبلاغة والدلالة) المتوافرة في النصِّ سواءً على مستوى الكلمة أم الجملة أم السياق بصورة عامّة، وأثرها في تنوع أوجه الفهم للمفردة داخل سياق الآية وكلُّ ذلك بعد بيان رأي المفسرين في نصِّ الآية، بصورة عامّة أو الكلمة موضع البحث والانطلاق منه لبيان الأوجه اللغوية الممكنة في فهم الآية، واستظهار مضمونها والدلالات التي تحملها.

المبحث الأول: النملة الأنثى : تدل أغلب القرائن اللغوية في هذه الآية المباركة على أنّ

هذه النملة المتكلمة من الإناث لا من الذكور والقرائن هي:

١. قوله تعالى (قالتُ) إذ اقترن الفعل بقاء التأنيث التي تتدل على أنّ الفاعل أنثى^(٨).

٢. ثمَّ إنَّه وصفها بأنَّها نملة أي أنَّها أنثى^(٩).

٣. وأخيراً قوله (من قولها) فأضاف (قول) إلى الضمير (ها) وهو ضمير الأنثى الغائبة المفردة.

وفي كون هذه النملة المتكلمة أنثى تبرز لنا الدوال اللغوية والعلمية الآتية:

١. إنّ طبيعة حياة النمل أن يعيش في ضمن نظام المملكة التي فيها ملكة أنثى حاکمة تدير شؤون المملكة، وتُصيِّر الأوامر فيها بوسائط التواصل بينها، وكذلك تقع عليها مهمّة وضع البيض، وتفرض سلطتها على جماعة من النمل تتخصّص الذكور منها بالأعمال الشاقّة من جلب الطعام وخزنه وبناء المملكة وتوسعتها بعمليات الحفر والتنقيب عن الأرض الرخوة التي يُمكن تصميم خلايا جديدة للمملكة عليها، والدفاع عن المملكة إلى غير ذلك من الأعمال، ثمَّ هناك مهمّة كبيرة تُلقى على عاتق الذكور هي تلقيح بيض النمل في بطن الملكة أو بعد وضعها إذ يتنافس الذكور على هذه المهمّة بل يتقاتلون عليها حتى يتمكّن أقواهم من أدائها بعد إبعاد منافسيه أو التخلص منهم^(١٠)، وتوجد طريقتان للتلقيح في مجتمع النمل الأولى في حالة شعور النمل بالاستقرار وانعدام المخاوف البيئية، فيكون تلقيح البيض وهو في بطن الأنثى الملكة ثمَّ تضعها في الخارج، وفي هذه الحالة يتمُّ تفقيس البيض سريعاً، ويكون ذلك البيض ضعيفاً أمام الظروف الطبيعية، أمّا إذا كان النمل مُهدداً بالخطر، ويشعر بعدم الاستقرار، فإنَّ التخصيب يتمُّ خارج بطن الأنثى الملكة، وفيها يكون البيض

أكثر مقاومة للظروف الطبيعية من درجة حرارة ورطوبة وبرودة ثم تُفقس البيضة في مدّة قصيرة تصل إلى أربع وعشرين ساعة حين تجتمع الظروف المناسبة من حرارة ورطوبة، ومن الثابت في مضائته من الدراسات العلميّة الحديثة أنّ هذه الملكة الأنثى هي الوحيدة التي تقوم بطرح البيض إذ تقوم هي بنفسها بهذه الفعاليّة بعد أن تكون قد قضت على قدرة غيرها من الإناث على القيام بهذه الفعاليّة عبر فرزها مادة مُعيّنه تُميّت في الإناث هذه القدرة وتبقى هي السبب الوحيد لبقاء المملكة وتكاثر أفرادها وهذا ما يدعم سلطانها فهذه النملة الأنثى ليست مثل بقية الإناث فهي من تتكامل فيها المواصفات الأنثويّة وقدرة وضع البيض والتلقيح وتختص الإناث بنظام الأعمال الداخلية منها أعمال تنظيف المملكة من فضلات الطعام وغيرها، وعملية استحداث خلايا جديدة ورعاية بيض النمل الذي وضعته الملكة فهنّ بمثابة خدم لها وليبيضا^(١١).

٢ . ومما يفيد كونه النملة أنثى وهي ملكة في مملكة تكون الإناث هي صاحبة السلطة والسطوة أنّ هذه النملة لا تعيش حالة تسلط الذكور على الإناث كما في بيئات أخرى وليس للذكور في نفسها هيبة وسطوة، ولكن لما رأته النبي سليمان (عليه السلام) وجيشه العظيم استشعرت هذه الحالة فقالت لا يحطمتكم (سليمان) فقد أفردته عن بقية الجنود، وجعلته في كفة بمقابل الجنود جميعاً إذ جعلتهم في كفة ثانية فهي بذلك تستشعر حالة سطوة قائد ذكر يكسر شوكتها ويسحق ملكها ومملكها بحوافر خيله. وهذا ما فيه من إظهار الدّل والانكسار والخضوع أمام سطوة هذا الحاكم القوي القاهر المقتدر.

٣ . نجد في قولها: (وهم لا يشعرون) مبالغة في وصف عظمة هذا الجيش الذي يسحق ممالك من الكائنات مع مالها من نظام عمراني وعسكري وعدّة وعتاد وجنود دون أن يشعر ذلك الجيش الجزار أنّه سحق مملكة أثناء سيره من دون عمد أو قصد ودون نيّة الهجوم على هذه المملكة وبنودها.

المبحث الثاني : صورة النملة الحاكمة :

من الصور التي يمكن أن نستشرفها من الآية المباركة لهذه النملة من خطابها في هذه القصة القرآنية القصيرة أنّها (حاكمة) على شعبٍ من جنسها توجّه له خطاباً عاماً يحمل في طياته الأوامر والنواهي، فيسمع كلامها، ويطيع أوامرها، وينتهي عن نواهيها، وهذه النملة توجه الخطاب عاماً إلى الجميع دون أن تستثني واحداً من خطابها، فإنّها (الحاكمة)، ولو عدنا إلى الآية المباركة، وتفحصنا ألفاظها جيداً لوجدناها تنطق بما قدّمناه في كثيرٍ من المعطيات اللغوية التي يحملها سياق الآية ومن أهم تلك المعطيات :

١. تنكير لفظ (النملة): إذ من المؤكد عند أهل اللغة أنّ من أغراض تنكير المسند إليه إرادة تعظيم شأنه أو تصغيره وتحقيره، ويبقى الحكم الفصل في ذلك للمتلقى بحسب ما يحمله السياق من دلالات تتجمع؛ لتحدد المعنى الأليق باللفظ^(١٢)، وهذا ما يمكننا أن نتلمّسه في قوله تبارك وتعالى: (قالتُ نملة) إذ ورد لفظ النملة نكرة. وهذا بحسب سياق القصة يحتمل تعظيم تلك النملة وأنها صاحبة سيادة^(١٣) في قومها وذلك لما سيأتي من خطاب لها يُبيّن طبيعة مكانتها في قومها.

٢. كلمة الافتتاح في خطاب النملة: تدل كلمة الافتتاح دلالة سيميائية على المحور الرئيس في نص الخطاب. ومقام الباث له ومقام متلقيه، وأخيراً العلاقة التي بيّنها كل منهما وهذا ما يُمكن المتلقي من توقع نوع الخطاب كأن يكون حجاجاً أو تضامنياً أو استعلائياً أو غير ذلك^(١٤)، وقد بدأ كلام النملة في قوله تعالى: (يا أيها النمل) بتركيب (يا أيها) الذي يستعمل به -عادة- الرؤساء والزعماء كلامهم حينما يوجّه بصورة رسمية إلى شعوبهم عامة أو إلى فئة مُعيّنة وهو يُعطي للكلام صفة الرسمية والفخامة إذ إنّ نفس أولئك الرؤساء لا يعتمدون إلى هذه الصيغة إلّا في الكلام الرسمي، فلا نجد هذه العبارة في كلامهم العادي الدارج، وهذا ما نجده في كلام هذه النملة إذ لم يكن كلامها موجّهاً إلى مَنْ حولها على نحو التداول اليومي العادي بل كان كلاماً رسمياً صادراً من جهة تتكلم باعتبار صفتها الرسمية وما تملكه من سلطة، فهي بهذه الأسلوب (النداء) بيّنت رتبها ورتبة الذين وجّهت الخطاب إليهم، ومن ثمّ علاقتها بهم، إذ نجد الخطاب مُصاغاً على نحو من الاستعلاء وفرض الهيمنة وفيه. أيضاً. ممارسة لسلطة المتكلم على المتلقين وإيحاء بإحاطة المتكلم بالمخاطبين علماً وسلطة وقدرة وهيمنة وسطوة، فمن هذا الخطاب يمكننا معرفة رتبة تلك النملة بين المخاطبين من أبناء جنسها من النمل، وأنها تحتلّ مرتبة الزعامة فيهم ولها ينقاد الجميع.

٣. عموم الخطاب: لو تأملنا في لفظ (النمل) وهي اسم جنس جمعي يعني جميع جنس النمل من الذكور والإناث على حدٍ سواء^(١٥)، وهي توجي للمتلقين بعموم الخطاب، فالكلُّ معني به دون النظر إلى اختلاف الجنس (الذكور والإناث) وتعدّد الرتب فضلاً عن العمر وغير ذلك، فالخطر لا يستثنى أحداً، ومن هذا الخطاب العام يُمكننا أن نفهم أنّ شخصية هذه النملة أعطتها حقّ توجيه خطاب عام لم تستثن منه أحداً ولو كانت نملة من سائر النمل لوجّهت خطابها تحديداً إلى من هو أعلى منها رتبة اجتماعية أو عسكرية إن كانت من الجنود وليس عامة النمل، وهذا ما فيه إشارة واضحة إلى شخصية هذه النملة وأنها حاكمة على الجميع.

٤ . توجيه الأوامر: ومما يؤكد حاكمية هذه النملة على جماعتها توجيهها للأوامر لهم إذ لو عدنا إلى الخطاب الموجّه لوجدناه يُعبر عن شخص الموجه له فإنّها قالت (ادخلوا) وهذا الخطاب يلزم منه أموراً عدّة:

أ. أن يكون الدخول أمراً مألوفاً معروفاً عند مجتمع النمل يمارسونه باستمرار في حياتهم اليومية وبكل سهولة ويسر.

ب . إن معرفة الدخول تعني بالضرورة أنّهم على معرفة بالخروج، ويمكنهم التمييز بين الأمرين والأوامر التي يؤديان بها .

ج . إن هذا يعني أن يكون مجتمع النمل على معرفة بنظام الدخول والخروج وأن لهذا النظام ضوابط ومراسيم محدّدة ولهم درية على كلّ فعل منهما.

د . إن هذا النظام (الدخول والخروج) يلزم منه أن يكون هناك منافذ محددة يتم الخروج منها والدخول عبرها إلى مسكن النمل، فقولها (ادخلوا) حوى في طياته كلّ هذه الأمور وهو منطلق من معرفة النملة بهذه الكيفية للدخول والخروج وضوابطهما وإحاطتها بالأنظمة والضوابط وكلامها انطلاقاً من أنّها تتكلم من مقام قوة وسلطة ورئاسة .

ثم في تحديدها جهة الدخول بقولها (مساكنكم) دون ترك الخيار للمتلقين في اختيارها أو اختيار غيرها يتبيّن أنّ الخطاب أمر على وجه الاستعلاء والإلزام فلم تترك في خطابها ثمة خياراً آخر لمخاطبيها، فالخطاب في حقيقته جملة أوامر موجّهة من شخص يُمثّل السلطة، ويُمارسها تجاه الآخرين، وذلك ما جعل الخطاب غاية في الصرامة والجِدّة ، فليس فيه تردد أو تخيير أو تأرجح ، وإنّما هو أمر ملكي واجب الطاعة على الجميع، فهو يُظهرها في مظهر من يملك مركز القرار، ومعدل السلطة، فهي من تُصدر الأوامر وتعلمها على الرعيّة بكلّ ثقة وقُدرة ورسميّة مع بيان ضوابط التزام هؤلاء المخاطبين بهذه الأوامر، أو بعبارة أخرى إذاعة الأوامر ثم بيان تفصيلها والداعي إليها، وهذا في غاية الرسميّة في المخاطبات.

المبحث الثالث: صورة النملة الحكيمة :

لا شكّ في أن منطق الفرد أيّاً كان دليلٌ على سعة الأفق الذي يمتلكه، وسعة عقله وامتلاكه الحكمة أو عدم امتلاكه إيّاها والحكمة في أوضح تعريفاتها((علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشريّة ... والحكمة أيضاً: هي هيئة القوة العقلية العلمية المتوسطة بين الغريزة التي هي إفراط هذه القوة، والبلادة التي هي تفريطها))^(١٦)، فهي معرفة

بعواقب الأمور أو معرفة النتائج المترتبة على الأعمال وهذه المعرفة بطبيعة الحال أمر نسبي يتفاوت من شخص إلى آخر كما قال الإمام علي (عليه السلام): ((المرء مخبوء تحت لسانه))^(١٧) ، وكذلك كُلُّ شيء من حولنا مخبأ حتى يتحرك بحركة ما فيعرف، وأهم تلك الحركات التي يُمكن بها تحليل شخصية الموجود هي النطق .

فالنطق أو الكلام بنظمه وأسلوبه يدلُّ على شخص المتكلم، ومنطلقات تفكيره، والأفكار التي يُؤمن بها والمعارف التي يمتلكها، ثم إنَّ الكلام يدلُّ على نظام التفكير الذي يسير وفقه ذهن المتكلم، ويُمكن بالكلام أن نعرف سلامة هذا النظام من عدمها، وجودته من رداءته .

ولو عُدنا إلى الآية المباركة: لنتتبَّع كلام النملة لفحصه وتحليله والوصول منه إلى تحليل شخصيتها ومنطلقها ومدى الحكمة التي نطقتُ بها، إذ يحمل خطابها إلى جماعة النمل عمقاً معرفياً، وحكمة عالية يُمكننا التوصل إليها بكثير من الدوال اللغوية التي تضمَّنها الخطاب، إذ ترسم هذه الدوال معالم الشخصية الحكيمة لهذه النملة واضحة جليَّة لقارئ الخطاب بما عرَّف بها القرآن الكريم ومن أهم تلك الدوال اللغوية:

١. الرأي الحكيم: يبيِّن سياق القصة أنَّ هذه النملة المتكلمة وجهتُ خطاباً لجماعة النمل التي تنتمي إليها مفاده أنه يجب على النمل الدخول إلى مساكنهم حتى ينجوا من أقدام جنود النبي سليمان (عليه السَّلام) فقد قالتُ النملة (ادخلوا)، في موقف خطير يُمكن أن يُؤدِّي بحياة كثير من شعبيها، وسرعة الموقف مع خطورته تعمل على تشتت ذهن الآخرين، وضياع القرار من أذهانهم، فربَّما تصرَّف بعضهم بخلاف ما يقتضيه الموقف، وخلاف الحكمة، أو سلك الطريق الخاطئ، لذلك كان الموقف بحاجة إلى قرار سريع صحيح يُحدِّد طريق النجاة ووجهة السلامة، وبيان كيفية الوصول إليهما لضمان سلامة الجميع.

فنجد اللسان الحكيم ينطق بكلِّ ثقة ووضوح أن (ادخلوا) فقد حمل هذا الخطاب عمقاً معرفياً ثم ردها بقولها: (مساكنكم) فطريق النجاة هو (ادخلوا) ووجهة السلامة هي المسكن الآمن الذي يُبنى عادة في مواقع يُخطط لها ويتمُّ اختيارها على أساس العنصر الأمني والعنصر الاقتصادي أو الغذائي، فالنمل يبني مساكنه في أماكن تتوافر فيها الأغذية اللازمة، ثم في أماكن آمنة من مخاطر البشر، والحيوان ومياه الأمطار وغير ذلك .

ثم هي تُبنى مهندسة معمارية تجعل فيها ملاذاً آمناً حيث تُشكِّل الأنفاق والدهاليز الأفقية والعموديَّة التي تُشقُّ تحت الأرض بمساحات تصل إلى بعض الأمتار في أنفاق صغيرة مقطعة إلى حجرات عدَّة يُفصل بين كل واحدة منها بفاصل من اللبن المُصنَّع من الطين الذي يتشكِّل من امتزاج

التراب مع لعاب النمل نفسه، ثم ما تمتاز به مملكة النمل من الساتر، فمن هذه القدرة الكاملة على معرفة نسبة الخطر وتحديد جهته وعواقبه ثم سبل الخلاص منه تتبين قدرة هذه النملة على تحليل الأحداث ومعرفة عواقبها وحكمة مجرياتها وما يلزم من موقف تجاهها وهذا كله يعرض قدر الحكمة التي كانت عليها هذه النملة.

٢. الخطاب بالوعي الجمعي: تنقسم المواقف بحسب نقطة الانطلاق ونوع الهدف على قسمين^(١٨): مواقف بطوليّة تنطلق من شخصيّة الفرد؛ لتعبر عن ذاته وأخرى تنطلق من شخصيّة الفرد الذائبة في المجتمع؛ لتحكي حالة المجتمع، والفرق بينهما أنّ الموقف الأول يتكلم فيه الشخص عن نفسه وحاجاته وأحواله، أمّا في الثاني فيكون الشخص ذائباً في المجتمع يحكي حاجات المجتمع وأحواله، فهو يتكلم عن لسان الجماعة لا عن نفسه، فيكون عقله ووعيه متصلين بوعي تلك الجماعة، ولو عدنا إلى خطاب النملة لوجدناه من النوع الثاني إذ انطلقت النملة في أول كلامها من المجتمع فقالت (يا أيها النمل) إذ نجد في قولها دلالات عدّة منها أنّ هذا الخطاب يُذكر هذه الجماعة بطبيعتها أبدانها الضعيفة التي لا تصمد أمام معظم المخاطر حولها، ثم هو تذكير بهروبها المستمر أمام أكثر تلك المخاطر من حيوانات أكبر منها حجماً أو جريان السيول حول مملكتها أو نزول الأمطار الكثيفة وغير ذلك من الأخطار فهو يُمثل إشارة إلى سُنّة مستمرة في تراثها، وفيه. أيضاً. إشارة خفيّة إلى التضحيات أو الضحايا التي يُقدّمها مجتمع النمل بسبب أي واحد من هذه الأخطار المستمرة.

وأخيراً نجد أنّ في قولها (يا أيها النمل) إشارة إلى خصوصيّة هذه الجماعة وأنّ حديثها ليس في لحاظ هذه الجماعة فقط وإنما بلحاظ جماعة أخرى تقف أمامها.

٣. سرعة الموقف: ومما نجده من مواطن الحكمة في قولها (ادخلوا) يحمل هذا الأمر الموجّه إلى جماعة النمل من دواعي تجمع أفراد هذه المجموعة على قرار سريع وحكيم واتخاذ ما يلزم بحكمة ونسق مُحدّد إذ من المتعارف عليه عند جميع المخلوقات بما فيها البشر حال حصول الخطر بُروز حالة الهلع والتصرف العشوائي وربّما سلوك الطريق الخطأ أو القيام بالفعل الخاطئ ممّا يزيد نسبة الخطر أو يُقرّب ذلك المخلوق من مواطن الخطر، فجاء خطاب هذه النملة مُحمّلاً بالحكمة إذ رجّع قولها (ادخلوا) جماعة النمل إلى السياق المعروف عندهم عند حصول حالة تهديد حياتهم، وهذا السياق هو الهروب، وتحديد جهة الهروب إلى المساكن دون غيرها يحمل قراراً في تجمع النمل أولاً ثمّ ذهابه إلى المكان الصحيح إذ في المسكن يجد النمل المأوى الآمن إذ يُبعده هذا المسكن عن خطر التحطيم تحت حوافر الخيل وأرجل الجنود.

وفي إشارة خفيفة إلى أن بعض المخاطر سيكون الأمر على العكس مثل نزول الماء إلى المسكن، فهنا سيكون الأمر اخرجوا من مساكنكم، وتوجهوا إلى المرتفعات من الأرض أو الأشجار أو الأجسام؛ لتتجنب خطر الماء.

٤. إنَّ في قولها (ادخلوا) إشارة إلى نظام متكامل من الدخول والخروج إذ لو لم يكن النمل على معرفة بهذه الأنظمة لما وجهت له أوامر بذلك، فالأمر بالدخول يلزم منه معرفة بنظام الدخول والخروج، وكذلك يلزم منه وجود مداخل ومخارج ثم هي قالت (مساكنكم) بلفظ الجمع أي أنَّها مساكن كثيرة، وهذا يلزم منه أن تكون هناك مسالك وطرق داخلية تُؤدِّي إلى تلك المساكن، وهذا ما يُحتِّم وجود نظام منضبط من الحركة في الدخول والخروج، وهو يُزيل حالة التشتت والخوف إذ يُذكرها بمواطن الأمن وطريقة الوصول إليها.

٥. ثمَّ إنَّ وقوف هذه النملة في موقف صعب أمام خطر مُحْدِق، وهي تملك زمام نفسها، وتُفكِّر بهذا الخطر، وتُحدِّد جهته وحجمه ثمَّ تتخذ القرار المناسب والإجراء السليم أمامه لأجل دفع الضرر عن جماعتها، فلم تكن تُفكِّر في إطار نفسها فقط مثل غيرها من أفراد النمل، كلُّ هذا علامات تدلُّ على حكمة هذه النملة وقدرتها التي تفوق قدرة أبناء جنسها.

الخاتمة والنتائج

بعد هذه القراءة الفاحصة لشخصية النملة في القرآن الكريم وما جاء به السياق القرآني من رسم لصور هذه الشخصية في هذه المساحة الصغيرة منه، ثمَّ ما تميَّز به أسلوب القرآن الكريم من تنوع في الدلالات، يُمكننا هنا أن نُثبِت ما توصل إليه البحث من نتائج وهي كما يأتي:

١. قد أعطى القرآن الكريم لهذه النملة حيزاً من الأهمية يبيِّن أن هذه الشخصية شخصية استثنائية مُميَّزة أو فلنقل إنَّها شخصية شبيهة متكاملة في بيئة النمل، وهذا يلمح إلى وجود تفاوت فردي بين أفراد عالم النمل، أي وجود أفراد تتكامل فيهم صفات الكائن الحي ومنهم من تضعف فيه هذه الصفات أو تقل.

وممَّا يُؤكِّد ذلك تصوير القرآن الكريم هذه النمل بشخصية متعدِّدة الجوانب فهي حاكمة توجه الأوامر وحكيمة تنطق بالحكمة في حين أنَّه يُوحى بأنَّ المُتلقين من أبناء شعبها بالشخصية الأحادية التي امتازت بالسمع للأوامر وإطاعتها دون ردِّ الخطاب أو مداولته.

٢. وممَّا يترتب على ذلك أنَّنا يمكن أن نتصور الطبقيَّة في عالم النمل وتصنيف أفرادها وفقاً كما هو الحال في عالم البشر سواء باعتبار ضابطة المعرفة أم الرتبة الإدارية في تصنيف هذه الطبقات.

٣. إنَّ للعبارة القرآنية انعكاسات متنوعة متعدِّدة، ويعتمد تعدُّدها بتعدد القراءات لها وما يترتب من نتائج على إدراك المعطيات وعقد القرائن اللغوية.

٤. إنَّ للنص القرآني مراتب في الفهم تترتب طولياً بحسب ما يتوافر من معطيات لغوية عند المتلقي أو يقف هذا الترتيب الطولي إلى جانب الترتيب العرضي وتعتمد كلُّ مرتبة من الفهم على طبيعة المعطيات اللغوية والمقدمات المعرفية التي تُترجم النصَّ القرآني وتساعد على فهمه.

٥. قد تدجَّ القرآن الكريم في رسم هذه الشخصية بتدرج النص إذ وجدناها تنمو مع كلِّ كلمة في خطابها، بتطور السياق الذي تضمَّنها وهذا يجعلها شخصية متحركة نامية تعج بالحياة. فلم يعطها السياق هذه الصورة دفعة واحدة في حالة واحدة ولو فعَّل ذلك لتوقَّفت وتجمَّدت ولتوقَّفت معها ذهن المتلقي في استلام تداعيات المعاني. ولكنَّه استمر في بنائها ورسمها على مدار القصة من أوَّلها إلى منتهائها .

٦. إنَّ منهج التحليل اللغوي قادر على اعطاء صورة شبه متكاملة عن المحتوى الذي تضمَّنه النص القرآني للمعنى التي أراد التوصل إليها، وهذا ما يُغني الباحث في النصِّ القرآني عن كثير من العلوم الأخرى في الحقول المعرفية مثل الفلسفة والتصوِّف والتأريخ وغيرها في كثير من مستويات فهم النص القرآني ، وما نراه من إفراط في الاعتماد على هذه المناهج عند عدد من المفسرين إنَّما هو لعجز واضح لديهم في الجانب اللغوي مما اضطرَّهم إلى الابتعاد عن النص القرآني والركون إلى غيره في فهمه .

الهوامش

- ١- وسائل الشيعة : محمد حسن العاملي: ١٩٢/٢٧.
- ٢- شرح نهج البلاغة : محمد عبده ، ٤٠٥/٤ .
- ٣- ينظر: الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي ٣٤٨ /٢٠.
- ٤- ينظر: البرهان في تفسير القرآن :السيد هاشم البحراني :٢٠٥/١
- ٥- ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٣٣٩ /٢٠ ، ٣٦/١٧
- ٦- ينظر: المصدر نفسه: ٤٤/١٩
- ٧- ينظر: لسان العرب، ابن منظور: ٦٧٩/١١ مادة : (نمل)
- ٨- ينظر: النحو الوافي ،عباس حسن :٤٦
- ٩- ينظر: جمهرة اللغة ،ابوبكر محمد بن الحسن بن دريج :٢/ ٩٨٧، مادة (نمل)
- ١٠- ينظر:دراسة تصنيفية و بيئية للنمل(Hymenoptera: Formicidae)صفاء محمد ياسين، رسالة ماجستير ، كلية الزراعة ، جامعة البصرة، ٢٠١٠ :ص١ و ١٠ و ١٢ .
- ١١- ينظر:دراسة تصنيفية و بيئية للنمل(Hymenoptera: Formicidae) ٦٧
- ١٢- ينظر: مختصر المعاني :سعد الدين التفتازاني: ٥٧
- ١٣- ينظر: تفسير مجمع البيان ، الشيخ الطوسي ، ٣٧٠ /٧
- ١٤- ينظر:أسلوبية الخبر والانشاء في نص لحن الزار: عبد الله الزهراني :١
- ١٥- ينظر الصحاح ، للجوهري ١٣٦٥ /٢ ، مادة (نمل)
- ١٦- التعريفات : الجرجاني:٧٤ الجرجاني .
- ١٧- نهج البلاغة .خطب الإمام علي (عليه السلام)، شرح محمد عبده :٣٨/٤
- ١٨- اجترأح النص المفتوح في (ضراوة الحياة اللامتوقعة):صباح الانباري :٢

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- اجتراف النص المفتوح في (ضراوة الحياة اللامتوقعة) ، صباح الأنباري ، شبكة الاتصال العالمية (نت)
- أسلوبية الخبر والإنشاء في نص (لحن الزار) عبد الله الزهراني . شبكة الاتصال العالمية (نت)
- البرهان في تفسير القرآن . السيد هشام البحراني ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ط٢ ، ٢٠٠٦ م
- التعريفات الجرجاني . دار احياء التراث، بيروت ، ط١ ، ٢٠١١ م
- تفسير مجمع البيان ، الشيخ الطوسي ، تحقيق وتعليق : لجنة من العلماء والمحققين الاخصائيين ، ط١ ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت-لبنان ، ١٤١٥هـ-١٩٩٥ م .
- جمهرة اللغة ، ابو بكر محمد بن الحسن بن دريج ، تحقيق رمزي منير بعلبي. دار العلم للملايين بيروت . ط١ . ١٩٨٧ م
- دراسة تصنيفية وبيئية للنمل (Hymenoptera: Formicidae) صفاء محمد ياسين رسالة ماجستير، جامعة البصرة / كلية الزراعة ٢٠١٠ م
- شرح نهج البلاغة ، محمد عبده ، ط٥ ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٢٠٠٣ م
- الصحاح ، للجوهري ، تحقيق :شهاب الدين ابي عمرو ، دار الفكر. بيروت ط١ . ١٩٩٨ م
- لسان العرب، ابن منظور ، دار الفكر بيروت ط٦ ، ١٩٩٧ م.
- مختصر المعاني ، سعد الدين التفتازاني ، دار الفكر، قم ط١ ١٣٣٦ هـ
- الميزان في تفسير القرآن ، محمد حسين الطباطبائي ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت ط١ ، ١٩٩٧ م
- النحو الوافي ،عباس حسن، ط٦ ، دارناصر خسرو. ١٤٢٢ هـ
- نهج البلاغة خطب الإمام علي (عليه السلام)، شرح: الشيخ محمد عبده، ط١، دار الذخائر، قم - إيران ، ١٤١٢ هـ
- وسائل الشيعة ، محمد حسن العاملي . مؤسسة آل البيت عليهم السلام لأحياء التراث ، قمُ المقدّسة (د ت) .